دور الثقافة في النضال الوطني عند اميلكار كابرال

(دراسة تحليلية)

■ د. احميد حمد بوصبع*

كتب اميلكار كابرال (1924-1973) هذا النص الفلسفي في عام (1970) ولقد ورد في دفاتر البان اف (12)، وهو يأتي من بين تلك النصوص الفلسفية التي حصل من خلالها كابرال على درجة الدكتوراه الفخرية، من جامعة لينوكلن بولاية بنسلفانيا، نقله إلى اللغة العربية أبكر أدم أسماعيل بتاريخ 26-7-2018 والذي أصبح متخصصا في ترجمة عديد من كتابات كابرال الفكرية. وسوف يقوم الباحث بدراسة تحليلية لهذا النص الفلسفي، حتى يقدمها للقارئ العربي لكي يكون على إطلاع لما قدمه كابرال للفكر الفلسفي الثوري المعاصر.

يرى كابرال، ان للثقافة دورا محوريا وبارزا في حركة النضال الوطني ضد المستعمر، حيث أن المستعمر لا يمكنه من إخضاع مستعمراته وفرض هيمنته والمحافظة عليها إلا عن طريق قمع ثقافة مجتمع السكان الأصليين، فالعنف الهائج الذي يمارسه المستعمر في المستعمرات ضد الشعب المضطهد يريد من خلاله أن ينهي الحياة الثقافية لدى ذلك الشعب، حتى يتمكن من فرض سيطرته وهيمنته الأجنبية عليه، فعندما تكون الثقافة المحلية لمجتمع ما قوية يكون من الصعب فرض السيطرة على ذلك المجتمع وإخضاعه لإرادة المستعمر الأجنبي، فالثقافة حسب رأي كابرال، يمكن أن تلعب دورا منافسا لهيمنة المستعمر عندما تكون قوية فهو يرى انها تشكل ما يسمى بالمقاومة الثقافية، التي تقاوم المستعمر سياسيا واقتصاديا وعسكريا، ان كابرال يريد بذلك أن ينتصر لثقافة المضطهدين والمقهورين، في بلده غينيا بيساو وجزر الرأس الاخضر لا بل في افريقيا المستعمرة كلها، فالقضايا التي أثارت كابرال هي ذات القضايا التي أثارت من قبله كوامي نكروما وباترس لومبا ومن قبلهما ايمي سيزار، الذي كان له الأثر البليغ على الفكر الفلسفي والثوري المعاصر في افريقيا زمن النضال، وذلك من خلال كتابه (خطاب حول الاستعمار) فالمتتبع للقصائد الثورية لكابرال يجدها شديدة الشبه

* عضو هيئة التدريس بكلية الآداب – جامعة سبها

والتأثر بقصائد ايمي سيزار خصوصا قصيدته (زهرتي السوداء)، فهي تكاد ان تكون محاكاة لقصيدة (نزيف الحجر) لايمي سيزار، والتي قد تأثر بها فرانز فانون أيضا وأوردها كاملة في مؤلفه (معذبو الأرض).

يذهب كابرال إلى أن المستعمر من أجل فرض السيطرة المطلقة على مجتمع السكان الأصليين أمامه فرضيتان، عليه أن يختار أحداهما، وكلتا الفرضيتان في نظر كابرال من الصعب تحقيقهما، فالأولى هي القضاء النهائي على الشعب المضطهد وقطع الطريق أمامه على إمكانية قيام المقاومة الثقافية، والثانية هي تحقيق الهيمنة الاقتصادية والسياسية للمستعمر ومواءمتها مع ثقافة الشعب المضطهد، ففي الفرضية الأولى، اذا قام المستعمر بالإبادة الجماعية للسكان الأصليين، فلن يكون هناك معنى للهيمنة الأجنبية عندها، أما في الفرضية الثانية، إن التاريخ والتجربة الواسعة للبشرية، تؤكد لنا أن نفترض أنه ليس من الممكن مؤامة الهيمنة الاقتصادية والسياسية على شعب ما مع الحفاظ على ثقافته من الاندثار، لذلك يرى كابرال أن المستعمر لكي يهرب بعيدا من هذا الخيار، والذي يمثل معضلة المقاومة الثقافية لمجتمع السكان الاصليين، اراد المستعمر صياغة نظريات عنصرية جديدة تمكنه من حصار مجتمع السكان الأصليين، والتي أطلق عليها ما يسمى بنظرية الاستيعاب التدريجي، حيث يقول كابرال على سبيل المثال، عن نظرية الاستيعاب التدريجي لمجتمع السكان الأصليين، إنها ليست سوى محاولة عنيفة لإنكار ثقافة الشعب المضطهد ،» إن الفشل المطلق لهذه النظرية، التي نفذت في الواقع من قبل العديد من القوى الاستعمارية، بما في ذلك البرتغال، هو الدليل الأكثر وضوحا على افتقارها إلى الصلاحية، إن لم يكن على طابعها الانساني. انها تحقق أعلى درجة من العبث في الحالة البرتغالية، حيث اكد سالازار ان افريقيا غير موجودة. هذا هو الحال ايضا مع ما يسمى نظرية الفصل العنصري، التي تم انشاؤها وتطبيقها وتطويرها على أساس الهيمنة الاقتصادية والسياسية على شعب جنوب افريقيا من قبل أقلية عنصرية، مع كل الجرائم الفاحشة ضد الإنسانية التي تنطوي عليها . تأخذ ممارسه الابارثيد شكل الاستغلال غير المقيد لقوة عمل جماهير الأفارقة، المسجونين والمقموعين في أكبر معسكر اعتقال عرفته البشرية».[1]

إن ما ذكره اوليفيرا سالازار رئيس وزراء البرتغال، إبان حكم الاستعمار البرتغالي لغينيا بيساو وجزر الرأس الاخضر، وأثار استهجان كابرال له عن عدم وجود افريقيا فهو ليس غريب في رأي الباحث، فقد كانت خريطة افريقيا حتى مطلع القرن التاسع عشر غير

واضحه كغيرها من خرائط القارات الأخرى، وقد رسم العقل الاوروبي آنذاك صورة خيالية ومبهمة عن الأفارقه وحياتهم. [2] حيث توصف «تماما بعبارات تلك العلامات مفترضة للحياة الافريقية التي شتمت لفتره طويلة في الفكر الاستعماري ـ الانغماس في الشهوات الحسية، والإيقاع ... وماضي بدائي». [3] فإفريقيا كما يعتقد هيجل لا علاقه لها بالتاريخ العالمي، والرجل الزنجي يمثل الإنسان الطبيعي في حالته الهمجية غير المرضية، وهذا ما ورثه صموئيل هنتنغتون الذي اقر بوجود خمس حضارات رئيسية هي الصينية واليابانية والهندية والإسلامية والغربية وجعل من الحضارة الأفريقية أمرا محتملا حالها حال أمريكيا اللاتينية. وحتى ارنولد توينبي، المؤرخ والمفكر البريطاني الذي اشتهر بالموضوعية والحياد ورفضه للمركزية الغربية، وبإيمانه بأن البيئة تلعب دور التحدي في استنفار قوى الإنسان الحضارية عندما تكون قاسيه، تحدث عن إحدى وعشرين حضارة لم تكن الحضارة الأفريقية من بينها، إلا إنه لم ينكر الحضارة الأفريقية بسبب اللون وإنما لما أنجزته، لان توينبي في كثير من الحالات في كتابه (دراسة للتاريخ) حينما يميز الحضارة الإسلامية ومقومات استمرارها كحضارة قويه ومنتجه، يرى انها تقف على عنصرين أساسين ومن هذين العنصرين عدم وجود عنصريه في مبادئ الحضارة الإسلامية. [4]

ان قراءتنا لهذا النص الفلسفي وما وراءه، أو بمعنى آخر المسكوت عنه عند كابرال، تبين لنا ان كابرال يريد ان ينبه رفاقه في النضال الوطني التحرري وأبناء شعبه إلى خطط واستراتيجيات المستعمر البرتغالي، التي يريد من خلالها طمس هوية وثقافة السكان الاصليين الغينيين خاصة والأفارقة عامة، واستبدالها بثقافة المستعمر تدريجيا، وهذا تماما جوهر ما نبه إليه فانون وحذر منه مرارا وتكرارا في كتاباته (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء) و (من أجل ثورة أفريقية) و (معذبو الأرض) إبان الثورة الجزائرية ونضاله ضد المستعمر الفرنسي، حيث أكد فانون على ضرورة التمسك بالثقافة والهوية في مواجهة المستعمر، لكنه حذر من مغبة النكوص إلى الروح القومي والتقوقع فيه، وعدم التسليم بجدلية التاريخ وحركته، فإن التمسك بالثقافة الوطنية الأصلية لا يعني الانفصام عن الواقع الجاري، بل تحويل هذه الروح القومية إلى تراث منفتح على الاخر، شرط أن يكون هذا الآخر من المؤمنين بالحرية، والكافرين بالاستعمار كحركة تشوه الطبيعة الإنسانية. [5]

يوضح لنا كابرال أنه من خلال البحث في طبيعة النضال الوطني للشعوب المستعمرة في عصرنا المعاصر، نجد أن الهيمنة الامبريالية أصبحت متميزة في الشكل والمضمون عن

مختلف الأنواع السابقة من الهيمنة الأجنبية، سواء كانت الهيمنة العسكرية أو الإقطاعية أو حتى الهيمنة الرأسمالية، إلا أن القاسم المشترك بين كل نوع من انواع الهيمنة الإمبريالية، هو العمل على نفي العملية التاريخية للشعب المضطهد، وذلك عن طريق الإخضاع العنيف للتشغيل الحر لعملية تطوير القوى المنتجة. وفقا لكابرال، إنه في أي مجتمع من المجتمعات في عصرنا المعاصر، فإن مستوى تطور القوى المنتجة ونظام الاستخدام الاجتماعي لهذه القوى (نظام الملكية) يحدد نمط الإنتاج، كما أنه حسب كابرال، أن نمط الانتاج الذي تتجلى تناقضاته خلال الصراع الطبقي، هو العامل الرئيسي في تاريخ اي مجتمع من المجتمعات البشرية، ومستوى القوى المنتجة هو القوة الحقيقية الدافعة للتاريخ الإنساني. يقول كابرال «بالنسبة لكل مجتمع، لكل مجموعة من الناس، باعتباره كيانا متطورا، يشير مستوى القوى المنتجة إلى مرحله تطور المجتمع وكل مكون من مكوناته فيما يتعلق بالطبيعة، وقدرته على التصرف أو الاستجابة بوعي في فيما يتعلق بالطبيعة. يشير إلى ويشترط نوع العلاقات المادية (المعبر عنها بشكل موضوعي أو ذاتي) والتي توجد بين مختلف العناصر أو المجموعات التي تشكل المجتمع المعني. العلاقات وأنواع العلاقات بين الإنسان والطبيعة، بين الإنسان وبيئته. العلاقات ونوع العلاقات بين المكونات الفردية أو الجماعية للمجتمع. وللحديث عن ذلك، يعني الحديث عن التاريخ، هو يعني كذلك الحديث عن الثقافة».[6] إن كابرال هنا يريد أن ينبه بأن أوروبا الاستعمارية قد تجمد الدم في شرايينها، وان على رفاقه المناضلين ان يطرحوا مشكلة الإنسان من جديد، وأن يقفوا في وجه حركة أوروبا الساكنة، والتي قد استحال فيها الديالكتيك شيئا فشيئا إلى منطق توازن.

فالثقافة حسب كابرال، دائما موجودة في حياة المجتمع، مهما كانت طبيعة هذا المجتمع سواء كان مجتمعا منفتحا أو مجتمعا منغلقا، والثقافة في رأيه، هي ثمرة ذلك النشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لهذا المجتمع، وهي التعبير الديناميكي عن أنواع العلاقات التي تسود المجتمع، أي بمعنى العلاقة بين الإنسان فردا كان أو جماعه مع الطبيعة، وكذلك علاقة أفراد المجتمع مع بعضهم البعض. والقيمة الحقيقية للثقافة حسب كابرال، تكمن في كونها عنصر مقاومه للهيمنة الأجنبية، وهي مظهر قوي على المستوى الايديولوجي أو المثالي للواقع المادي والتاريخي لمجتمع السكان الأصليين، الذي وقع تحت سيطرة وهيمنة المستعمر أو في إطار السيطرة عليه، فالثقافة هي ثمره لتاريخ الشعب ومحدد لهذا التاريخ، عبر تأثيرها الأيجابي أو السلبي، الذي تمارسه على تطور العلاقات بين الإنسان ومحيطه البيئي

وبين الأفراد بعضهم البعض داخل المجتمع الواحد.

نجد كابرال الذي درس في تعليمه الجامعي العلوم الزراعية في جامعة لشبونة، يسوق لنا تشبيها رائعا وجميلا للثقافة، يدل على تأثره بدراسته للعلوم الزراعية، حيث يشبه الثقافة بالزهرة، فيذهب إلى أنه كما أن الزهرة هي نتاج النبتة فإن الثقافة هي نتاج تاريخ الشعب، ومهما كانت الخصائص الإيديولوجية والمثالية للتعبير الثقافي فهي عنصر أساسي في تاريخ الشعب ، فالثقافة حسب كابرال، لها أساسها المادي وهي تغزز جذورها في الواقع المادي للبيئة التي تتطور فيها، ومن هنا فهي تعكس الطبيعة العضوية للمجتمع، والتي من الممكن قد تتأثر بشكل أو بآخر بتلك العوامل الخارجية التي قد تطرأ على المجتمع، فحسب كابرال، اننا نتعلم الدروس من التاريخ بمعرفة طبيعة الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تميز تطور مجتمع من المجتمعات البشرية، حيث تتيح لنا وتمكنتا الثقافة من معرفة التجميعات الديناميكية التي طورها وربطها الضمير الاجتماعي، للتصدي ووضع الحلول لتلك الصراعات في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع البشري، في مسيرة البحث عن البناء والتقدم. وهذا ما يفسره قوله «مثلما يحدث مع الزهرة في النبات، توجد في الثقافة القدرة (أو المسؤولية) لتشكيل وتخصيب البذور التي ستضمن استمرارية التاريخ، وفي الوقت نفسه ضمان آفاق التطور والتقدم للمجتمع المعني. وهكذا من المفهوم أن الهيمنة الامبريالية بإنكارها للتطور التاريخي للشعب المسيطر عليه، تنكر بالضرورة تطوره الثقافي، ومن المفهوم أبناء لماذا تكون الهيمنة الامبريالية، مثلها مثل كل هيمنة أجنبية أخرى تتطلب من أجل أمنها الخاص، الاضطهاد الثقافي ومحاولة التصفية المباشرة أو غير المباشرة للعناصر الأساسية لثقافة الشعوب المهيمن عليها».[7]

يبين لنا كابرال أنه ومن خلال دراستنا لتاريخ النضال الوطني للشعوب، نجد أن هذا النضال الوطني تسبقه عادة حركه ثقافية واسعة، مع نشاط وزيادة في التعبير الثقافي للشعب المضطهد من قبل الاستعمار، في محاولة ناجحة أو غير ناجحة لتأكيد الشخصية الثقافية لهذا الشعب المسيطر عليه، وذلك باتخاذ الثقافة كوسيلة لنفي ثقافة الاستعمار، الذي يمارس الاضطهاد تجاه الشعب. ومهما كانت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية للشعب، فإن الثقافة نجدها تمثل المقاومة الوطنية وبؤرة المعارضة، التي ترفض التنكر لقيم المجتمع والتفسخ وفقا لإرادة المحتل، وكذلك تؤدي إلى هيكلة وتطوير حركة النضال الوطني ضد الاستعمار. وهذا ما دفعه للقول إن « الحركة ينبغي أن تكون قادرة على الحفاظ على القيم

الثقافية الإيجابية لكل مجموعة اجتماعية واضحة المعالم، ولكل فئة، وأن تحقق احتشاد تلك القيم في خدمة النضال «.[8]

ويذهب كابرال إلى أن أساس النضال الوطني، يقع في الحق المشروع غير القابل للتصرف لكل الشعوب في أن يكون لها تاريخها الخاص بها، بصرف النظر عن أي صياغات يمكن اعتمادها على مستوى المجتمع الدولي والقانون الدولي، الذي بدون أدنى شك لا يمكن له معارضة أو مصادرة حق الشعوب في الكفاح الثوري. ان هدف النضال الوطني، حسب كابرال ـ والذي في رأي الباحث بمثابة بيان عام يصدره كابرال هنا ـ هو استعادة الحق المغتصب للشعب من قبل الهيمنة الامبريالية الأجنبية، أي بمعنى تحرير عملية تطوير القوى الإنتاجية الوطنية، فالتحرر الوطني عند كابرال يحدث عندما تكون قوى الإنتاج الوطني متحررة من جميع أنواع الهيمنة الامبريالية الأجنبية. إن تحرير القوى المنتجة والذي بدوره يؤدي إلى القدرة على تحديد نمط الانتاج الأنسب لتطور المجتمع المتحرر، حيث يمكن هذا المجتمع من فتح آفاق جديدة لتطوره الثقافي، وذلك من خلال تمكين هذا المجتمع من استرجاع كامل إمكانياته وقدراته التي تساعده وتمكنه من التطور والتقدم على كل الأصعدة.[9]

إن تحرر الناس من قبضة المستعمر ومن هيمنته الأجنبية دون ان يكونوا احرارا من الناحية الثقافية، فهذا لا يكفي عند كابرال، سيكونوا أحرارا في نظره عندما يعودون، بدون عقد وبدون شعور بالنقص تجاه ثقافتهم، أو التقليل من اهمية التراكيب الايجابية لثقافة مجتمع السكان الأصليين وغيرها من الثقافات الأخرى، التي يغذيها الواقع الحي لبيئتها، والتي ترفض الغزو الثقافي وكل ما يصاحبه من تأثيرات ثقافية ضارة تدعو إلى الخضوع للثقافة الأجنبية. وهكذا، فإن النضال الوطني هو بالضرورة عمل ثقافي يقف في وجه القمع الثقافي، الذي تمارسه الهيمنة الإمبريالية الأجنبية في مجتمع السكان الأصليين. كما أن حركة النضال الوطني تعد تعبيرا سياسيا منظما عن ثقافة الناس، الذين يمارسون النضال من أجل التحرر من المستعمر. ولهذا السبب نجد كابرال يدعو أولئك المناضلين الذين يقودون حركة النضال الوطني، بأن يكون لديهم فكرة واضحة عن قيمة الثقافة في إطار النضال الوطني التحرري، ويجب ان يكون لديهم معرفة دقيقة وواضحة تمام الوضوح بثقافة الشعب الخاضع، وبكافة جوانب حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. يقول كابرال «من الشائع أن نؤكد أن جميع الشعوب لديها ثقافة . لقد مضى الأوان الذي، فيه المحاولة لإدامة سيطرة شعب ما، لقد كانت الثقافة تعتبر صفة من سمات الشعوب أو الأمم المتميزة،

عندما كانت الثقافة، سواء بسبب الجهل أو الخبث، ملتبسة مع القوة التقنية، إن لم يكن مع لون البشرة أو شكل العينين. يجب ان تكون حركة التحرير، كممثلة للشعب ومدافعة عن ثقافته، واعية بحقيقة أنه، مهما كانت الظروف المادية للمجتمع الذي تمثله، فإن المجتمع هو حامل الثقافة وخالقها. علاوة على ذلك، يجب على حركة التحرير أن تجسد الشخصية الشعبية للثقافة، والتي لا يمكن أبدا أن تكون ميزة لواحد أو بعض قطاعات المجتمع». [10]

إن حركة التحرر الوطني في المجتمع المضطهد عند كابرال، لابد أن تعمل على التحليل الشامل والكامل للبنية الاجتماعية لهذا المجتمع، لكي تكون قادرة على القيام بعملها الثوري فيما يتعلق بحتمية النضال الوطني ضد المستعمر، فإن الدراية الكاملة بالخصائص الثقافية لكل مجموعة في المجتمع لها أهمية قصوى في حركة النضال. فعلى الرغم من أن الثقافة لها طابع شعبي، فهي ليست منسجمة ومتطورة بنفس القدر بين جميع قطاعات المجتمع، إن هناك مواقف مختلفة بين كل مجموعة اجتماعية تجاه النضال الوطني، حيث نجد للمصالح الاقتصادية لكل مجموعة في المجتمع دورا بارز التأثير على مواقفها، وكذلك نجد أيضا أن المجموعات تتأثر بعمق بثقافتها. وباعتبار أن الثقافة تعني السلوك، فإن هذه الاختلافات في المستوى الثقافي تفسر لنا بكل وضوح الاختلافات في السلوك تجاه حركة النضال الوطني، من جانب أولئك الأفراد الذين ربما ينتمون إلى نفس المجموعة الاجتماعية الاقتصادية. وهنا في هذه المرحلة، نستطيع أن نقول إن الثقافة تصل إلى أهميتها الكاملة لكل فرد في المجتمع، من حيث التفاهم والانسجام مع بيئته، وكذلك التعرف على مشكلات وتطلعات المجتمع الأساسية، وإمكانية قبول التغيير من أجل تحقيق التطور والازدهار. [11]

يلاحظ كابرال أن التوزيع الأفقي والرأسي لمستويات الثقافة في بلده غينيا بيساو امر معقد نوعا ما، وان عديداً من المجتمعات الأفريقية لها نفس النمط ، وهو يدعو حركة النضال الوطني أن تأخذ هذه الحقائق بعين الاعتبار، ويبين لنا كابرال، بأن الاختلاف الثقافي يجده من القرى إلى البلدات، ومن مجموعة أثنية إلى أخرى، ومن مجموعة عمرية إلى أخرى، ومن الفلاح إلى العامل، وكذلك من الفرد إلى الفرد في إطار المجموعة الاجتماعية الواحدة، يختلف المستوى الكمي والنوعي للثقافة بشكل كبير. يقول كابرال «في المجتمعات ذات البنيه الاجتماعية الأفقية، (كالبالانتي)، على سبيل مثال، يكون توزيع المستويات الثقافية متماثلا إلى حد ما، حيث ترتبط التفاوتات بشكل فريد بخصائص الأفراد أو الفئات العمرية. من ناحيه أخرى، في المجتمعات ذات البنية الرأسية، مثل (فولا)، هناك اختلافات مهمة من

الأعلى إلى اسفل الهرم الاجتماعي. توضح هذه الاختلافات في البنيه الاجتماعية مرة اخرى العلاقة الوثيقة بين الثقافة والاقتصاد، وتوضح أيضا الاختلافات في السلوك العام أو القطاعي لهاتين المجموعتين فيما يتعلق بحركة التحرر».[12]

كما يلاحظ كابرال أيضا، أن تعدد المجموعات الاجتماعية والاثنيات العرقية في مجتمع السكان الأصليين يحد من دور الثقافة في حركة النضال، وكذلك يعيق الجهد المبذول من طرف المناضلين لتمكين النشاط الثقافي من المساهمة الفعالة في مساندة العمل الوطني النضالي. وتظهر لنا تجربة الهيمنة الإمبريالية الأجنبية، أن المستعمر يحاول استغلال الانقسامات داخل المجتمع المضطهد في محاولة استدامة الاستغلال، وذلك لينشئ المستعمر نظاما لقمع الحياة الثقافية للشعب المضطهد، وكذلك لكي يقوم المستعمر ايضا بتنمية الاغتراب الثقافي لجزء من أبناء الشعب، أما عن طريق ما يطلق عليه برنامج استيعاب السكان المحليين، أو من خلال خلق فجوة اجتماعية بين النخب المحلية المثقفة وعامة الشعب. ونتيجة لهذا العمل الاستعماري الذي يهدف إلى تعميق الانقسامات في المجتمع المضطهد، نجد ان جزاء كبيرا من أبناء المجتمع وبالتحديد أولئك المنتمين للطبقة (البرجوازية الصغيرة) وبعض الفلاحين، يعد نفسه متفوقا ثقافيا على أبناء شعبه وينظر إلى القيم الثقافية الوطنية باستعلاء ويبدأ بمحاولة محاكاة القيم الثقافية للمستعمر. فلقد عمل المستعمر على سياسة تدمير ما هو موجود لإحلال ثقافته الدخيلة محله. [13] وهذا هو معنى الغزو الثقافي الذي يقصد « به العمل التعسفي الذي يمارسه طرف قوي ... على طرف ضعيف، بغية اختراق ثقافته أو إلغائها كليا أو جزئيا وعلى الاقل التشكيك في مقوماتها كاللغة والعادات والتقاليد والتراث وإنكار صلاحيتها لعصر الثورة العلمية والثقافية، والغزو الثقافي ... يهدف إلى احتلال الذاكرة والعقل معا». [14] غير أننا نجد كابرال يراهن كثيرا على دور الطبقة البرجوازية في النضال، مع أنها تكاد أن تكون غير موجوده في بلده غينيا بيساو، والتي يعد معظم سكانها من الفلاحين، وقد دعا هذه الطبقة مرارا وتكرارا للانتحار، اي بمعنى التخلص من امتيازاتها وأطماعها المادية البسيطة التي يقدمها لها المستعمر، والانضمام إلى حركة النضال الوطني. ويرى الباحث أن كابرال لا يهتم كثيرا بطبقة الفلاحين، ربما لأنه تأثر كثيرا بفكر ماركس ولينين، ذلك الفكر الذي يرى أن الطبقة العاملة هي التي تقود الثورة في المجتمعات الرأسمالية، ويبدو ان هناك تلاقيا واضحا بين كابرال وزعيم الحزب الشيوعي الفيتنامي نغوين الذي يرى « أن الفلاح لا يستطيع مطلقا أن يكتسب من تلقاء ذاته وعيا

ثوريا، إلا من خلال المناضل القادم من المدن». [15]

يعتقد كابرال، ان بعض المثقفين في المجتمع الخاضع قد يتأثر، بتلك الزيادات في الامتيازات الاجتماعية للجماعة المغتربة ثقافيا والمستوعبة من قبل الاستعمار، والذي بدوره ينعكس مباشرة على سلوك الأفراد في هذه المجموعة تجاه حركة النضال الوطني. وبالتالي، لابد من العمل على اعادة تحويل العقول إلى الاندماج الحقيقي للناس في حركة النضال الوطني. ومثل هذا العمل، يحدث من خلال الاتصال اليومي مع أبناء الشعب في الاشتراك في برامج التضحية والفداء، الذي يتطلبه النضال الوطني التحرري. وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أنه في حال احتمال الاستقلال السياسي، فإننا سوف نواجه نوعا من الطموح والانتهازية لدى بعض من عناصر حركة النضال الوطني، بمعنى أنه قد نصادف معنا في النضال أفرادا غير ثوريين حقيقيين، قد يصلوا إلى أعلى المراتب والمناصب في الحركة. وبالتالي لابد أن يكون لدينا الوعي الثقافي والسياسي لمعالجة مثل هذه الحالات. لذلك يحذر كابرال رفاقه في النضال الوطني من الاغتراب الثقافي، لأنه يعيق ويفشل العمل الوطني التحرري، ويرى أنه حتى القادة السياسيين الأكثر شهرة في افريقيا بعضهم مغترب ثقافيا، ويعبر عن ذلك بالقول المأثور بأنه (ليس كل ما يلمع ذهب). [16] ويلاحظ كابرال، أن الاغتراب الثقافي واضح تمام الوضوح في سلوك الجماعات التي تتلقى الامتيازات من المستعمر، حيث تم استيعابها ثقافيا من قبله، والتي لابد من الانتباه لها وأخذ الحيطة والحذر منها، حيث يقول «هذا هو الحال، على سبيل المثال، مع طبقة فولا الحاكمة. تحت السيطرة الاستعمارية، السلطة السياسية لهذه الطبقة (الزعماء التقليديون، العائلات النبيلة، الزعماء الدينيون) هي سلطة اسمية بحتة ، والجماهير الشعبية تعرف أن السلطة الحقيقية تكمن في وتمارس بواسطة الإداريين الاستعماريين. ومع ذلك، فإن الطبقة الحاكمة تحافظ في جوهرها على آثار سياسية بالغة الأهمية». [17] ويبرز هنا واضحا نقد كابرال لحركة الزنوجة وعلى رأسها ليبولد سنغور الرئيس السنغالي، حيث ترى الحركة أنه لدى الشعب الأسود تمثل التجربة الاستعمارية تجربة عرقية تخلق شخصية جمعية للشعب الأسود، ومن هنا، فإن حركة الزنوجة تناقش مجمل القيم الثقافية لعالم السود، فإننا نجد العرق الأسود لدى سنغور مرتبطا بإفريقيا حصرا، حيث تقدم افريقيا السوداء جذرا ثقافيا يشترك فيه كل السود في العالم ويقر سنغور بوجود ثقافة أفريقية مشتركة في الثقافات الفرعية للسود، وهي لاتزال حية في كل مكان. [18]

هذا الاتجاه الذي يواصله فما بعد سنغور مطالبا باستقلال بلاده عن فرنسا (1962م). وإن كان سنغور الذي يعد، (أهم رواد أدب الزنوجة)، الذين كما يرى الباحث زينوا رؤوسهم بأقنعة البيض، وكتبوا أشعارهم باللغة الفرنسية، لا الوطنية (الولوف أو البمبرا أو الهوسا). إنما كتبها بلغة المستعمر، وذلك عين ما ينتقده كابرال، لأنه أدب يكتب بلغة تلك القوة الاستعمارية وأساليبها وإلى مصلحتها، ولو أن تلك الكتابة كانت احتجاجا على ممارسات المستعمر. إن الآدب والثقافة الذي يدعو له كابرال هو أدب نضال موجه للشعب الخاضع لتشكيل وعيه القومي بعيدا عن الاغتراب الثقافي فخ المستعمر، والذي وقع فيه بعض السياسيين والقادة وتلك الجماعات التي تتلقى الامتيازات الاستعمارية. [19]

يجد كابرال أن المستعمر في مجتمع السكان الأصليين يقوم بقمع وإعاقة النشاط الثقافي الشعبي في قاعدة الهرم الاجتماعي، لكنه يقوم بتشجيع وحماية البرامج والأنشطة الثقافية للطبقة الحاكمة في قمة الهرم الاجتماعي، كما يقوم المستعمر أيضا، بالعمل على تثبيت الزعماء والقادة الذين يدعمون وجوده الاستعماري، خصوصا أولئك الذين لهم قاعده شعبية عريضة، حيث يكونوا مقبولين إلى حد ما من قبل بعض فئات الشعب، فيعمل المستعمر على منح هؤلاء الزعماء والقادة بعض الامتيازات المادية، مثل إتاحة فرص التعليم المجاني لأبنائهم، ويعمل على تكوين مشايخ وزعماء مناطق وعشائر، كما يقوم بمحاولات بناء علاقات ودية مع الزعماء الدينيين، وقد يعمل على مساعدتهم في بناء وتطوير دور العبادة لكي يحاول استقطاب بعض عامة الشعب. إن المستعمر يتعهد بضمان الامتيازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للطبقة الحاكمة في علاقاتها مع الشعب المضطهد، وقد يبرز في بعض الأحيان أن بعض من أفراد الطبقة الحاكمة ينضمون إلى حركة التحرر الوطني، وكذلك الحال مع بعض من افراد البرجوازية الصغيرة، وبعض من الزعماء الدينيين، والذي بدوره يدفع ويساهم مساهمة فعالة في قضية النضال الوطني. [20]

فقد تبين لكابرال، أنه في النظام الاستعماري هناك بعض المثقفين وكبار المسؤولين المغتربين ثقافيا، الذين تم استيعابهم من قبل المستعمر، وكذلك بعض نواب وممثلي الطبقة الحاكمة من المناطق الريفية من هم موالين لأبناء الشعب المضطهدين. هذه الحقيقة تبين بعض المقاييس للتأثير الإيجابي، أو السلبي، للثقافة، وتبين لنا مشكلة الخيار السياسي عند أولئك المسؤولين والمثقفين عندما يواجهون حركة النضال الوطني، كما أنها توضح حدود هذا التأثير وأثر عامل الطبقية في سلوكيات المجموعات الاجتماعية المختلفة في المجتمع الخاضع،

يقول كابرال «فالمسؤول الرفيع المستوى أو المثقف، الذي يتميز بالاغتراب الثقافي الكامل، يتماهى عن طريق الاختيار السياسي مع الزعيم التقليدي أو الديني الذي لم يعان من تأثيرات ثقافية أجنبية مهمة. لأن هاتين الفئتين من الناس تضعان امتيازاتهما الاقتصادية والاجتماعية الخاصة، ومصالحهما الطبقية الخاصة فوق كل المبادئ ومطالبنا ذات الطبيعة الثقافية ـ وضد تطلعات الشعب. هذه حقيقة لا يمكن لحركة التحرير أن تتجاهلها دون المخاطرة بخيانة الأهداف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية للنضال».[21]

■ **الخلاصة:**

ان كابرال يركز على الثقافة الشعبية في عمل حركة التحرر الوطني، لكنه لا يهمل تلك المساهمة الإيجابية والفعالة، والتي قد تساهم فيها الطبقات ذات الامتيازات في هذا النضال، بينما نجد الأساس عنده على المستوى الثقافي وكذلك على المستوى السياسي، هو أن تؤسس حركة النضال الوطني عملها على الثقافة الشعبية، مهما كان تنوع مستويات الثقافات في المجتمع المضطهد. [22] وذلك لأن كابرال يجد من المستحيل التخطيط للنضال والكفاح الثقافي ضد الهيمنة الإمبريالية الاستعمارية ـ خصوصا في المراحل الأولى من النضال الوطني ـ بفاعلية عالية وكفاءة إلا على أساس الثقافة الشعبية العاملة في المناطق الريفية والمناطق الحضرية، وكذلك (البرجوازية الصغيرة) المنتمية لأفريقيا والتي لم تتأثر بالغزو الثقافي للمستعمر، فهي في رأي كابرال، برجوازية وطنية وثورية من شأنها أن تساهم في حركة النضال الوطني، ويذهب كابرال، إلى أنه مهما كان تعقيد هذه البانوراما الثقافية الأساسية، إلا أن حركة النضال عليها أن تملك القدرة على التمييز في داخلها بين العمل الأساسي والعمل الثانوي، وكذلك بين ما هو إيجابي وما هو سلبي، بين التقدمي والرجعي، ويأتي هذا حتى تتمكن حركة النضال من تحديد وتوصيف الخط الرئيسي الذي يمكننا أن نطلق عليه ثقافة وطنية تقدمية، ومن هنا نستطيع ان نقول، إنه لكي تتمكن الثقافة من تأدية دورها المحوري والرئيسي الذي يفترض بها أن تقوم به في إطار حركة النضال الوطني، يجب ان تكون حركة النضال الوطني قادرة على الحفاظ بشكل جيد على الثوابت والقيم الثقافية الوطنية الإيجابية لكل مجموعات المجتمع الاجتماعية، من كل الفئات، والعمل على تحقيق التقاء هذه الثوابت والقيم الثقافية في خدمة النضال الوطني، مما يكسبها بعدا وطنيا، فالنضال الوطني عند كابرال، هو نضال من أجل الحفاظ على الثوابت والقيم الثقافية للشعب المضطهد، ومن أجل تنسيقها وتطويرها في إطار وطني. [23]

■ **الهوامش :**

(1) اميلكار كابرال، التحرر الوطني والثقافة، دفاتر ألبان افريكانزم (12)، ترجمة ابكر ادم اسماعيل، Splmnorth.com.

(2) Bart leet, struggle for Africa, london, 1949, p9.

(3) انيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، اللاذقية، الطبعة الاولى، 2007، ص214.

(4) صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات، ترجمة مالك ابو شهيوه، ومحمود خلف، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ص109.

(5) فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، جمال الاتاسي، دار القلم، بيروت، الطبعه الاولى، 1972، ص154-156.

(6) اميلكار كابرال، التحرر الوطني والثقافه، دفاتر ألبان افريكانزم (12).

(7) اميلكار كابرال، المصدر نفسه، دفاتر ألبان اف (12).

(8) Cabral, A.(1994). National Liberation and Culture, in p. Williams and L.Chrisman (eds), Colonial Discourse and Post Colonial Theory: A Reader, New York: Columbia University Press, pp5455-.

(9) اميلكار كابرال، التحرر الوطني والثقافة، دفاتر ألبان افريكانزم (12).

(10) اميلكار كابرال، المصدر نفسه، دفاتر ألبان اف (12).

(11) Cabral, A.(1994). National Liberation and Culture, pp5660-.

(12) اميلكار كابرال، التحرر الوطني والثقافة، دفاتر ألبان افريكانزم (12).

(13) محمود أحمد الديك، الثقافة العربية في افريقيا بين الواقع والطموح، مجلة الجامعي، العدد (12)، طرابلس، ليبيا، 2006، ص175.

(14) علي الطاهر عريبي، تأثير الإسلام واللغة العربية في اللغة السواحلية، مجلة الجامعي، العدد (12)، طرابلس، ليبيا، 2006، ص80.

(15) ديفيد كوت، فرانز فانون، ترجمة عدنان كيامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1971، ص86.

(16) اميلكار كابرال، التحرر الوطني والثقافة، دفاتر ألبان افريكانزم (12).

(17) اميلكار كابرال، المصدر نفسه، دفاتر ألبان اف (12).

(18) انيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ص214.

(19) فرانز فانون، معذبو الارض، ص172.

(20) اميلكار كابرال، التحرر الوطني والثقافة، دفاتر ألبان افريكانزم (12).

(21) اميلكار كابرال، المصدر نفسه، دفاتر ألبان اف (12).

(22) انيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ص54-65.

(23) اميلكار كابرال، التحرر الوطني والثقافة، دفاتر ألبان افريكانزم (12).